التعريفات الجمالية وأضدادها

بقلم الأستاذ: أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

لإيماني بأن التعريفات اللغوية تدل على مفاهيم فكرية مشتركة، ولإيماني بأن التصور مرحلة تسبق الحكم: فقد أردت تلخيص وتحرير التصورات البشرية لمعنى الجمال من مضامين اللغة.

والسبيل إلى ذلك: أن أعرّف معنى الجمال أولاً، ثم أعرّف معاني مرادفاته ثانياً، ثم أعرف معاني أضداده.

والغرض من تعريف المرادفات: استخلاص المعنى المشترك بين الجميل والجمال ومرادفها؛ ليكون التعريف ـ بالشرط المنطقي ـ جامعاً.

والغرض من تعريف الأضداد: زيادة في تنقيح التصور على مبدأ (وبضدها تتبين الأشياء)، وتحصيل التعريف المانع.

وهذا العناء اللغوي ليس تكلفاً ولا تشبعاً ولا مستكثراً، لأنه سبيل ناجح لمطلب خطير يتصف بأنه لايزال محل خلاف عريض.

وأعني بهذا المطلب: القيمة الجمالية.

وسر نجاح تلك السبيل: أنها بدهية، لأنها تحرير للمفهوم البشري من واقع اللغة.

ويزيدها أهمية: أنه مغفول عنها في جميع الدراسات الاستاطيقية.

والمحصل الوحيد الذي أسعى إليه أن أصل إلى نظرية في القيمة الجمالية بعيدة عن الارتيابية والميتافيزيقية.

١ ـ مادة الجيم والميم واللام

قال الأزهري: (الجمال مصدر الجميل، والفعل منه جمل يجمل).

وقال الله تعالى: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ [سورة النحل/٦]: أي بهاء وحسن). اه تهذيب اللغة ١١٠/١١.

وقال سيبويه: (الجمال رقة الحسن). اه تاج العروس.

وقال الراغب والفيروز ابادي: (الجمال: الحسن الكثير). اه المفردات ص ٩٧ وبصائر ذوي التمييز ٣٩٥/٢.

وقال ابن فارس: (الجيم والميم واللام أصلان: أحدهما: تجمع وحسن الخلق. والآخر: حسن.

ثم قال: والأصل الآخر الجمال، وهو ضد القبح.

قال ابن قتيبة: أصله من الجميل، وهو ودك الشحم المذاب.

يراد أن ماء السمن يجري في وجهه). اه معجم مقاييس اللغة ٥٨١/١.

وقال الجرجاني والأحمد نكري: (الجمال من الصفات ما يتعلق بالرضى واللطف). اه التعريفات ص ٨٢ ودستور العلماء ٤١٠/١.

وقال الأحمد نكري: (الجمال والحسن تناسب الأعضاء). اه دستور العلماء ٤١٠/١.

ومن هذا العرض يتضح أن اشتقاق الجمال محتمل من أحد ثلاثة وجوه:

أن يكون الجمال ـ بمعنى الحسن ومرادفاته ـ هو المعنى الوضعي الأولي الأصلي الحقيقي الجامع لمادة الجيم والميم واللام.

ثم اشتق من هذا المعنى الحقيقي معنى عظم الخلق قياساً على الجمل لعظم خلقه، وإنما سمي جملاً لحسنه.

وإلى هذا المعنى الاشتقاقي نحا الراغب فقال: (وتسميته الجمل بذلك يكون لما قد أشار إليه بقوله: ﴿ ولكم فيها جمال ﴾، لأنهم كانوا يعدون ذلك جمالاً لهم). اهـ المفردات ص ٩٨.

قال أبو عبد الرحمن: ثمة دلائل تجعل هذا الرأي مرجوحاً، وهي:

أ ـ أن الله امتن علينا بجمال الأنعام، وهي أعم من الإبل، وغير الإبل لا تسمى ذكوره جمالا.

فلا بد من دليل على أن المراد في الآية الكريمة خصوص الإبل، أو أن ذكور الإبل أولى بالتسمية بالجمال.

ب ـ أن ملحظ العظمة في اشتقاق بقية معاني الجيم والميم واللام أوضح وأكثر من ملحظ الحسن، فليس معنى الحسن أولى بأن يكون معنى حقيقياً جامعاً.

جـ ـ أنه ليس كل عظيم الخلقة يكون حسن المنظر، وبالعكس فحسن المنظر تعظمه النفس.

والوجه الثاني: أن تكون العظمة هي المعنى الأولي الأصلي الحقيقي الوضعي الجامع، ويكون معنى الحسن مشتقاً من ذلك.

فالتسمية أطلقت على الجمل لعظم خلقه، ولهذا حدوا للتسمية حداً يكون به كمال الخلق على خلاف بين اللغويين في هذا الحد: أهو الإرباع، أم الإجذاع، أم البزول؟!

وسميت حبال السفن جمالات لأنها تجمع فتكوّن ـ بتشديد الواو ـ عظمة بحيث تصير في حجم أوساط الرجال.

قال الأزهري: (كأن الحبل الغليظ سمي جمالة، لأنه قوي كثيرة).

وجملة الحساب مبلغه ونهايته، ففي هذا معنى الكمال.

واشتق من معنى العظمة والكمال معنى البهاء والحسن، وذلك عندما اشتق معنى الحسن من معنى الجميل ـ أي الودك المذاب ـ كما مر في توجيه ابن قتيبة.

والوجه الثالث: أن يكون المعنى الأصلي لأمور مجتمعة هي التجمع والحسن معاً، ويراعي في التجمع حصول عظمة، أو كمال، أو بلوغ غاية.

وهذا الرأي يجعل مرادفات الجمال ترادفاً على وجه التضمن أو اللزوم دون المطابقة.

وهذا أصح الآراء في تفسير الترادف. وهذان الوجهان الأخيران سأجعل البت فيهما مرهوناً بالفراغ من تبويب معاني المادة ووجه ترابطها واشتقاقها.

تبويب معاني الجيم والميم والـلام ووجه الترابط بينها

استعملت هذه المادة للمعاني التالية:

أ ـ الجمل، وهو ذكل الابل إذا أربع أو أجذع أو أثنى أو بزل.

وفي الجمل معنى العظمة، لأنه من أعظم الحيوانات التي تعرفها العرب.

وفيه معنى الحسن للامتنان به كما في الآية الكريمة.

وفيه معنى الكمال وبلوغ الغاية، لأن التسمية مؤقتة بالإرباع أو الإجذاع.. الخ.

وسميت الناقة جماليَّة ـ بتشديد الياء ـ تشبيهاً بالجمل في عظم الخلق والشهرة، ولهذا اشترطوا في التسمية أن تكون الناقة وثيقة.

وقالوا: رجل جمالي: أي ضخم الأعضاء.

وسموا النخل جملاً تشبيهاً بالجمل.

وكذلك سموا سمكة (البال). جملاً.

وراعوا معنى الضخامة النسبية فسموا طائراً من الدُّخَّل جميلاً بالتصغير، لأنه أعظم رأساً من الشقيقة بكثير مع أن بقية جسمه في حجمها.

ب ـ التجمع ، فسموا حبال السفن جمالات ، لانه يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون في حكم أوساط الرجال.

قال أبو عبد الرحمن: روعي في هذا المعنى العظمة والقوة الناتجة عن تجميع القوى وكمالها.

وأطلقوا الجامع على القطيع من الابل بما فيها الإناث برعاته وأربابه.

وأطلقوه على الحي العظيم.
وأطلقوا الجميلة على القطعة من الظباء والحمام.
واشتقوا الجملة لجماعة الشيء.
وكل هذا مشتق من جمالات السفن، لأنها قوى كثيرة جمعت.

قال الراغب: واعتبر معنى الكثرة، فقيل لكل جماعة غير منفصلة جميلة.

قال أبو عبد الرحمن: وروعي في اشتقاق التجميع معنى العظمة والضخامة الناتجة عن تجميع متفرق. ولهذا قالوا: أجمل الشيء بمعنى جمعه عن تفرقة فرده إلى كثرة موحدة.

وهذا هو معنى العظمة والضخامة.

وقالوا: أجمل الحساب: أي رده إلى الكثرة. واشتقوا من التجميع اسم (الجميل) للشحم المذاب، لأنه يجمع بعد أن يذاب، أو يذاب لتجمع صهارته، أو يجمع ليذاب.

وسموا الصهارة جمالة، وبهذا يكون جميل بمعنى مجمَّل.

وقد ورد في الأساس للزمخشري: خذ الجميل وأعطني الجمالة: أي الصهارة.

وسموا المرق جميلاً، لأن فيه جمالة: أي صهارة دهن.

وأطلقوا الجَمَلُون ـ بالتحريك ـ على كل بناء في هيئة سنام الجمل تشبيهاً به، لأن السنام جميل، وتصهر منه الجمالة.

ج ـ واشتقوا الجمال لمعنى الحسن وحده مراعين ثلاثة أو أربعة ملاحظ:

أولها: أن الحسن من نتائج العظمة.

وثانيها: على التشبيه بالجمال، لأنها زينة العرب.

وثالثها: شبهوا ماء العافية في الوجه بصهارة الجميل وهو الدهن المذاب، فسموا من فيه بهاء العافية جميلاً.

ورابعها: أن أكل الجميل يورث الصحة والبهاء في اعتقاد العرب، فمن زيَّنته العافية سمي جميلاً وفسرت عافيته بأكل الجميل.

ولهذا ورد في المعاجم(تجمل) بمعنى تزين، وبمعنى أكل الجميل.

وفي الصحاح أن الجمَّال ـ بالتشديد ـ أجمل من الجميل.

د ـ واشتقوا معنى الحسن والعظمة معاً. فسموا جملاء، وهي الحسناء التامة الجسم من كل حيوان.

وقالوا: أجمل الصنيعة: أي حسَّنها وكثَّرها.

هـ ـ واشتقوا معنى التَّصبُّر في تعبيرهم بالمجاملة والتجمل، ولهم في الاشتقاق ملحظان:

أولهما: التصبر، لأن الصبر صفة العظيم.

وثانيهما: التخلق بفعل حسن.

وقد نقل الأزهري: عن سلمة: عن الفراء قوله: (المجامل الذي يقدر على جوابك فيتركه إبقاء على مودتك.

والمجامل الذي لا يقدر على جوابك فيتركه ويحقد عليك إلى وقت ما). اهـ.

قال أبو عبد الرحمن: في هذين السببين معنى التصبر.

والسبب الأخير هو معنى قولهم: جامله مجاملة: أي لم يصفه الإخاء، بل ماسحه الجميل.

فالمسامحة تصبر، وما نتج عنها فعل مستحسن، لأن المسامح أحسن العشرة وعامل بالجميل. ومن معنى التصبر قولهم: أجمل في الطلب: أي اتَّأد.

وقالوا: جمَّل الجيش: أي أطال حبسه.

فكأنه أرغمه على التجمل بالصبر.

قال أبو عبد الرحمن: ضَفَّرتُ المرائر من الكتب التالية: الصحاح ١٦٦١/٤ وأساس البلاغة ص ١٠٠ والمغرب ٩٤/٢ والجمهرة ١١٠/٢ ـ ١١١ والتكملة ٣٠١/٥ ـ ٣٠٣ والمفردات ص ٩٧ ـ ٩٨ وتهذيب اللغة ١٠٦/١١ ـ ١١٠ ولسان العرب ١٢٣/١١ ـ ١٢٨ وتاج العروس ٢٦٢/٧ ـ ٢٦٤ قال أبو عبد الرحمن: ومعنى العظمة هو المعنى الجامع لكل تلك المعاني، فما تفرعت مشتقات المعاني إلا بملاحظته، وبهذا كان هو المعنى الأولى الوضعي الأصلي الحقيقي، وما عداه فهو معنى مجازي.

فصح بهذا أن الوجه الثاني من الأوجه الآنفة الذكر هو الصواب إن شاء الله.

ولا يلزم من هذا التصويب أن يكون الجمال مرادفاً للحسن مرادفة مطابقة، بل يكون الجمال للحسن المرتبط بالعظمة من أي وجه حصل به الاشتقاق.

مراجعة واستدراك

١ ـ اتضح أن المعنى الوضعي للعظمة الناتجة عن نمو وتجمع غير منفصل.

ثم استعملت المادة مجازاً للتجمع؛ لأنه سبب العظمة.

واستعملت للحسن، لأنه مشتق من التجمع بمجاز بعيد.

واستعملت للحسن والعظمة معاً، وذلك تعميم للمعنى الأصلي.

واستعملت للتصبر، لأنه حسن، ولأنه صادر عن نفس عظيمة (الخلق العظيم).

٢ ـ جعل ابن فارس هذه المادة ذات أصلين مستقلين هما العظمة والحسن.

وقد بينت في كتابي (اللغة العربية بين القاعدة والمثال) أن تعدد الأصول للمفردة وضعا محال، لأنه يقتضي أن يكون للواضع أكثر من معنى لمادة يقتضي أن يكون للواضع أكثر من معنى لمادة واحدة، وهذا تخليط وإشكال.

ولو جعل المادة أصلاً واحداً لمعنيين معاً هما العظمة والحسن لكان له محمل من النظر بحيث يكون راجحاً أو مرجوحاً دون أن يكون مستحيلاً.

٣ ـ كون الجيم والميم واللام أصلاً في العظمة: لا يعني أن جميلاً مرادف لعظيم ترادف مطابقة. وإنما هو ترادف في النوعية، ويكون الجميل أخص من العظيم، ويكون خاصاً بعظمة شوهد فيها النمو والاجتماع.

أما العظيم في العموم فهو ما شوهد فيه الكبر والقوة وإن لم يلاحظ معنى النمو والاجتماع الناتج عنه العظمة.

٤ ـ يتميز الجمال عن مرادفاته بأنه يلحظ فيه مع معنى الحسن معنى العظمة.

٥ ـ تعريف سيبويه للجمال برقة الحسن بعيد جداً عن حس اللغة، لأن معنى الرقة غير وارد في معاني الجمل الدالة على خلاف الرقة، وهو العظمة.

٦ ـ تعريف الراغب للجمال بالحسن الكثير تعريف صحيح؛ لأن الكثرة من معاني التجمع المتولد عنه العظمة.

٧ ـ معرفو الجمال من المصطلحين، لهم ثلاث سبل:

أولها: تعريف الجمال بالصفة في الموضوع. وهذه سبيل من عرف الجمال بالبهاء أو التناسب.

ثانياً: تعريف الجمال بشعور القلب أو علاقة الموضوع بالقلب.

وهذه سبيل من فسر الجمال بالرضى واللطف:

قال أهل هذا المذهب: الجمال صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس سروراً ورضى. المعجم الوسيط ١٣٦/١ والمعجم الفلسفي ص ٦٢.

فهؤلاء أغفلوا اسم الصفة ونصوا على الشعور وهو السرور والرضى.

أما قول صاحب المعجم الأدبي ص ٨٥: (الجمال ما يثير فينا إحساساً بالانتظام والتناغم والكمال): فهو كلام معكوس، لأن الجمال إحساس يصدر أحياناً من الانتظام والتناغم والكمال ولكنه لا يُصدر ـ بضم ياء الفعل المتعدي ـ الإحساس بالتناغم والانتظام والكمال، بل الإحساس يسمى سروراً أو رضى أو بهجة .. إلخ.

وثالثها: تعريف بالمرادف أو الضدية.

وهذه سبيل من قال: الجمال الحسن.
وسبيل من قال: الجمال ضد القبح.

قال أبو عبد الرحمن: فإذا تناولت إن شاء الله تعريف المرادفات والأضداد، وحددت معنى كل مفردة وفق ارتباطها بالمعنى الأصلي: فسيسهل بحول الله تحديد أنواع المشاعر الناتجة عن موصوف بالجمال.

أما تحديد الصفات في الموضوع التي ينتج عنها شعور جمالي ذاتي: فلا يؤخذ من اللغة، وإنما يؤخذ من أذواق الناس وتاريخهم الحضاري.

وبهذا تُصنَّف الصفات الجمالية تصنيفاً فئوياً تبعاً للأذواق وحظها من التربية والعلم والفكر.

٨ ـ استعمال الجمال للمرئي أقرب إلى الأصل اللغوي. ثم توسع فيه لغير المرئي، لأنه يحدث شعوراً في القلب مماثلاً للشعور الذي يحدثه المرئي.

قال ابن سيدة: (الجمال الحسن يكون في الفعل والخلق).

وقال ابن الأثير: (الجمال يقع على الصور والمعاني).

٩ ـ الآية الكريمة التي استشهد بها اللغويون لا تدل على أن الجمال تسمية لغوية للإبل، وإنما تدل على أن الجمال ملحظ مشاهد فيما يسمى إبلاً.

قال سيد قطب: (جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة.

وأهل الريف [والوبر أيضاً] يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة).

ثم قال: (فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة. وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات .. تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان). اهـ من تفسير سيد قطب ٢١٦١/٤.

وقال القرطبي: (وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئي بالإبصار موافق للبصائر. ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها: هذه نعم فلان. قال السدي.

ولأنها إذا راحت توفر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها، لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعاً. قاله قتادة.

ولهذا المعنى قدم الرواح على السراح لتكامل درها وسرور النفس بها إذ ذاك). اهـ من تفسير القرطبي ٧٠/١٠ ـ ٧١.

وقال الزمخشري: (منّ الله بالتجمل بها كما من الانتفاع بها، لأنه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معظمها، لأن الرعيان إذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة، فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء: أنست أهلها، وفرحت أربابها، وأجلهم في عيون الناظرين إليها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس.

فإن قلت: لم قدمت الإ راحة على التسريح؟ قلت: لأن الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها). اهـ من تفسير الزمخشري ٤٠١/٢.

١٠ ـ للفصل بين معاني الجمال بالنظر إلى تعريفه بالمشاعر القلبية وبالنظر إلى تعريفه بالصفات التي توجد في الموضوع كالبهاء والتناسب: ينبغي أن نراعي نتيجتين:

أولاهما: صفة الثبات للمشاعر التي تنتج عن الجميل، وهذا الثبات مبني على استقرار التعريفات اللغوية التي تعرف بها أعيان المشاعر. وأخراهما: صفة النسبية والعرفية للصفات التي ينتج عنها شعور.

وبهاتين النتيجتين أُسقط دعوى (كاسيرر) في كتابه (فلسفة الأشكال الرمزية) و(س.ك لانجر) في كتابه (الشعور والشكل): أن الخبرة الجمالية تعبير عن شعور أو رمز له. اهـ. ذلك أن الشعور الجمالي معبر عنه بتعريفات اللغة الدقيقة.

وإنما الصحيح أن الخبرة الجمالية تصنيف فئوي للصفات الموجودة في الموضوع التي تحدث الشعور الجمالي المفهوم لغة.

١١ ـ لا ريب أن العجز عن تحرير المفاهيم اللغوية للجمال يحدث خلطاً في تحديد القيمة الجمالية.

كما أن تحرير هذه المفاهيم ييسر فهم القيمة والقناعة بارتدادها إلى مشاعر القلب.

وإنما المعضلة في فلسفة القيمة الجمالية للعجز عن استكناه الصلة الخفية بين العناصر الموضوعية (أي الموجودة في الموضوع)، وبين الشعور الجمالي المنبعث في القلب.

أي فلسفة العامل المولد للإحساس بالجمال. وهذا ما يجب أن تتضافر على استكناهه شتى فروع العلم البشري.

قال القرطبي: (فأما جمال الخلقة فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر). اهـ من تفسير القرطبي ١٠/٧٠ ـ ٧١.

١٢ ـ تحقيق التعريفات اللغوية سيخلص الباحث من بعض الغمغمات الميتافيزيقية غير المرتبطة باللغة كقول أفلاطون:

الجمال إشراق الحقيقة!!

وقول بعض أتباعه: الجمال انعكاس ظل الخالق على المخلوقات.

وقول بعض الأدباء: الجمال الفني هو النجاح في التأويل الإنساني للطبيعة.

مع أن التعريف الأخير يعاب بقصره لتعريف الجمال على إحدى ظاهراته.

١٣ ـ فسر الفيروز ابادي الجمال في الآية الكريمة بالحسن والزينة كما في بصائر ذوي التمييز ٢/٣٩٦.

قال أبو عبد الرحمن: الزينة ليست تعريفاً للجمال، وإنما هي تفسير لاستعماله.

ومن ثم تكون الزينة معنى للصفات الموضوعية التي يلتمس منها شعور بالجمال.

١٤ ـ قال جبرائيل جبور في بحث له بعنوان (الجمل ركن من أركان البداوة):

(فذهبت معاجم اللغة [إلى] أن اسمه مشتق من الجمال، لأن العرب يحسبون الجمل جمالاً وزينة.

ومن يدري: فلعل كلمة الجمال نفسها اشتقت من الجمل؟!! لأنه مصدر الخير والحياة للبدوي، ولأن حياة البادية قد فرضت على البدوية أن تكون نحيفة الجسم لكثرة حركتها وتنقلها وعملها. فكان ينقصها شيء من الامتلاء والسمنة، فإذا امتلأ جسمها وكانت منعمة ـ كما يمتلىء جسم الجمل عندما يسمن ـ: قالوا عنها: جميلة وجملاء). اهـ من كتاب العيد ص ٢٨.

قال أبو عبد الرحمن: ها هنا أربع ملاحظات: أولاهن: أن رد اشتقاق الجمل إلى الجمال بمعنى أن الفَعَل مشتق من الفَعَال: مذهب سقيم.

بل الصحيح عندي: أن الصيغ موضوعة وضعاً وليست مشتقة، وإنما الاشتقاق من معانيها، فصيغة التَّفاعل للتتابع، وصيغة الفَعَل لتسمية الأعيان .. إلخ.

وبهذا لا تكون الفاعل للضارب مشتقة من الفَعْل للضرب.

بل الفاعل والفَعْل صيغتان موضوعتان أصلاً، وإنما تحول معاني الضرب إلى الصيغ التي تصلح لها وفق أسلوب العرب من الفاعل والفعَّال والمفعول ... الخ.

وإذن فثمة فرق بين القول بتحويل المعنى إلى الصيغة الموجودة وضعاً في لغة العرب، وبين القول باشتقاق الصيغة من صيغة أخرى.

فإن كان هذا التحويل موجوداً في المعاجم فهو لغة مسموعة.

وإن كان لا يوجد فهو تحويل قياسي أو اشتقاق معنوي، وليس اشتقاقاً لصيغة غير موجودة.

أما دعوى الاشتقاق اللفظي في كلام الصرفيين واللغويين فلا ينبغي أن يفهم على عموم الدعوى، وإنما يفهم على أنه تفسير لتحويل المعاني إلى صيغها، وأن التحويل وفق مقاييس تضبط البُنْيَة وليس وفق اشتقاق لفظي مزعوم.

وثانيتهن: أن الاشتقاق الصحيح إنما هو اشتقاق معنى الجمل من معنى العظمة، وأن أصل معنى المادة للعظمة.

وإذن فالجمال لم يشتق من الجمل، وإنما اشتق من معنى العظمة.

والجمل سمي جملاً لعظمته، وفي عظمته معنى الحسن من جهتين:

أولاهما: أن العرب اشتقوا معنى الحسن من ملاحظ لا يستوعبها الجمل وحده كما مر في أصل الاشتقاق.

وأخراهما: أن خلقة الجمل انتجت شعوراً جمالياً، فهو موضوع للجمال.

وليس في اللغة أن يسمى كل موضوع للجمال جملاً.

وثالثتهن: أن معاجم اللغة لم تذهب إلى اشتقاق الجمل من الجمال، وإنما استنبط المفسرون الجمال من الجمل لما ورد الامتنان بجمال الأنعام في الآية الكريمة.

ورابعتهن: أن الجميلة والجملاء ليستا صيغتين تَحوَّل إليهما معنى الجمل، وإنما هما صيغتان حُوِّل إليهما معنى الجميل.

١٥ ـ قال الشيخ أحمد الحملاوي في شذا العرف ص ٧٣: إن فعُل ـ بضم العين ـ يكون قياس مصدره فعولة وفعالة، وأن ما عدا ذلك يحفظ ولا يقاس عليه،

ومثل جمل جمالا.

قال أبو عبد الرحمن: إن كثرة ما سمع من الفعال يجعله قياسياً وذلك في باب الخصال الفطرية. وليس هذا فحسب، بل هو أكثر شيوعاً.

قال ابن سيده: (باب الخصال التي تكون في الأشياء وأفعالها ومصادرها، وما يكون منها فطرة ومكتسبا ونبدأ بالتي في الفطرة لفضلها.

أما ما كان حسنا أو قبحا فإنه مما يبنى فعله على فَعُلَ يَفْعُل ويكون المصدر فَعَالاً، وفَعَالة وفَعْلا.

وما سوى ذلك يحفظ حفظاً وليس بالباب، ثم ذكر جمل جمالا) اهـ من المخصص ١٤/١٤٧ ويرشح أصالته في المصدرية أن العرب بنوا على فعال في مجال الأمر لاكثير الفعل.

قال الدكتور عزة حسن في مقدمته لكتاب الصغاني ما بنته العرب على فَعَال ص ٢٧:

(والتوكيد بفعال هو السر كذلك في كثرة استعمال هذا البناء في النداء والتهديد والتحذير والزجر والشتم والمبالغة في الوصف أو الدلالة على غلبته على الشيء وما إلى ذلك من المعاني التي تشتد الحاجة إلى توكيد الكلام فيها).

قال أبو عبد الرحمن: تأتي فعال جمع فعالة كسحاب، واسما لوقت الفعل كالجزاز، وبمعنى فعيل كصحاح. انظر ديوان الأدب للفارابي ١/٨٥.

إلا أن الأصل فيها المصدرية لا سيما في الباب الذي ذكره ابن سيده.

١٦ ـ ذكر التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون ١/٣٤٨ أن الجمال قسمان:

أحدهما: ذاتي أو اكتسابي يعرفه كل الجمهور كصفاء اللون ولين الملمس.

وثانيهما: حقيقي وهو أن يكون كل عضو من الأعضاء على أفضل ما يُنْبَغَى أن يكون عليه من الهيئات والمزاج.

قال أبو عبد الرحمن: جهة القسمة ها هنا غير معروفة، كما أن القسم الأول غير متميز عن الثاني لاشتراكهما في الوصف بالحقيق. وإنما يُمثِّل القسم الثاني كمال الجمال لا حقيقته.

١٧ ـ ذكر التهانوي معنى الجمال في اصطلاح الصوفية، وأنه إلهام الغيب يرد على قلب السالك، وكمال المعشوق من العشق وطلب العاشق، وأنه صفة أزلية لله تعالى متمثلة في أسمائه الحسنى وصفاته العليا عموماً.

كما أنها متمثلة على وجه الخصوص فيما يتعلق بالرحمة والعلم واللطف والنعم والجود والرزق والنفع.

وثمة ما هو مشترك بين الجلال والجمال كاسم الرب فهو باعتبار التربية والإنشاء اسم جمال وباعتبار الربوبية والقدرة اسم جلال.

ومن ثم كان جمال الله نوعين: جمالاً هو معاني أسمائه وصفاته التي لا يعلمها إلا هو، وجمالاً صورياً هو العالم المطلق (المخلوقات).

وذكر التهانوي قول شارح الفارضية:

(خلق العالم مرآة شاهد فيها عين جماله). وأدرج القبح في العالم في مفهوم الجمال، لأن إبراز القبح في الأشياء إنما هو بالاعتبار.

قال أبو عبد الرحمن: أما الإلهام المدعى فوجه الجمال فيه اللذة والأنس والبهجة.

وأما الكمال والجلال فيحددان نوعية الجمال بالمثل الأعلى.

ووصف الله بالجميل ثابت بالشرع، وقد تناول عدداً من النصوص المثبتة جمال الله شيخ الإسلام ابن تيمية في آخر كتابه الاستقامة. ولكننا لا نكيف مفهوم جمال الله بكيفيات ما فهمناه من معاني الجميل لغة، لأننا لا نعلم لربنا كيفية، وإنما نعلم عنه ما علمنا إياه بالخبر لا بالحس والمشاهدة.

ولهذا نقر بجمال الله لأجل النص الشرعي، ونستنبط من النصوص أن الجلال

والكمال هما مفهوم الجمال على أن نراعي الوحدة والتناغم بين مفاهيم الأسماء والصفات.

وأما مخلوقات الله فكلها جميل لذات الخلق، لأن الله حكيم، ولأنه أحسن الخالقين.

أما بالنسبة لمشاعرنا نحن المخلوقين التي أخذنا منها العناصر المكونة لمفهوم الجمال: فإن ثنائية الجمال والقبح موجودة.

فما يطبعه إحساسنا عن وجوده قبح، وما نعقله من حكمة وجوده جمال.

وأما التعبير بالعشق والمعشوق فتجديف صوفي يرفضه ديني.

وكذلك القول بأن الخلق مرآة الخالق تجديف لا يليق ولا يجوز بلا خبر شرعي، ولا خبر بذلك.

وإنما الخلق دليل على قدرة الله وحسن خلقه، وشتان ما بين التعبيرين من فرق.

وأما تقسيمهم الجمال ـ المنسوب إلى الرب جل جلاله ـ إلى معنوي وصوري: فهو آت من التفريق بين صفات الله التي لا يعلمها إلا هو، وبين آثار صفات الله المشهودة في خلقه.

كما أنه آت من التفريق بين صفات الله القائمة بذاته وبين صفات الله التي يقوم بها خلقه.

والواقع أن آثار أسماء الله وصفاته كلها مشهودة في الخلق بلا فرق، لأن الخلق كله قائم بربه.

١٨ ـ فسر الدكتور كمال عيد الإحساس الجمالي بأنه مصدر الرأي في القوة الإنسانية، وأن يظل هذا الرأي حاملاً لما سماه العلماء (النوعية الجمالية). انظر فلسفة الأدب والفن ص ١٩.

قال أبو عبد الرحمن: الإحساس الجمالي تفسير لنوعية الجمال بلا ريب، لأن الإحساس بالجمال المرئي نوعية غير نوعية الإحساس بجمال المسموع. وهذا الإحساس مصدر الحكم بوجود الجمال في الموضوع بلا ريب.

ولكنه ليس مصدر الرأي في القوة الإنسانية، وإنما هو مصدر الحكم في الموضوع بأنه ذو قوة أو قوى ترضي الشعور.

ومن ثم يكون الرأي في قوة الموضوع ـ لا الرأي في قوة الإنسان، ولا الرأي الحاكم بوجود القوة ـ مستنبطاً من مواصفات الموضوع اهتداء بمشاعر الذات.

١٩ ـ وفي كتاب الدكتور كمال ص ٢٧: أن الإحساس بالجمال لم يولد معنا، وإنما هو محصلة تاريخية للعمل وظروف الإنسان.

قال أبو عبد الرحمن: هذا كلام مضلل، بل الصواب أن الإحساس الشعوري غريزي ما ظل الحس سليماً. غاية ما هنالك أن الجميل لا ينتج الإحساس بالجمال إنتاجاً غريزياً بإطلاق.

بل منه ما ينتج الشعور الجمالي غريزة، ومنه ما يحصل بالظرف التاريخي.

٢٠ ـ الشعور الجمالي يدل على حقيقة، وهي وجود الإحساس في الذات والباعث في الموضوع، وإن لم تعرف الكيفية.

ولا يوصف الشعور الجمالي الأدنى (البدائي مثلاً) بأنه غير حقيقي، وإنما تصنف حقيقته الواقعية بين صيغتي التفضيل: الأدنى والأكمل.

٢١ ـ اتفق المفسرون على نكتة بلاغية حول تقديم الإراحة على التسريح في الآية الكريمة، لأن كمال الجمال ملحوظ في الإراحة. وخص الله حالتي الإراحة والتسريح دون حالتي التفرق في المرعى والاستقرار في الحظائر.

لأنها في المرعى لا ترى مجتمعة فلا يتحقق المفهوم الأكمل للجمال، ولأنها في الحظائر لا ترى.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: قال قتادة: (وذلك أعجب ما يكون إذا راحت عظاماً ضروعها طوالاً أسنمتها).

وقال: إذا راحت كأعظم ما تكون أسنمة وأحسن ما تكون ضروعاً.

انظر تفسير ابن جرير ١٤/٨٠، وحاشية الجمل ٢/٥٥٩، وحاشية الصاوي ٢/٣٠٥، وابن جزي ٢/١٥٠، وفتح البيان ٥/٢١٦، وأبو السعود ٣/١٦٢.

٢٢ ـ قال ابن جزي: الجمال حسن المنظر. اهـ.

وهذا في الواقع تعريف للجمال بأحد أنواعه، ولكنه بالنسبة للآية الكريمة هو التعريف الصحيح، لأن المراد جمال منظر الأنعام سواء أكان هذا المنظر حسن خلقها، أم كان ما تجلبه رؤيتها من أنس وبهجة وفخر وفرح. لأن فيها حضوراً بعد غيبة وإقبالاً بعد إدبار.

ويؤيد أن المراد جمال المنظر أن الله خصص وقتي الرؤية وهما الرواح والتسريح.

قال محمد عزة دروزة:

(المتبادر أن المقصود الإشارة إلى ما في منظر الأنعام وهي تغدو وتروح من مشهد جميل ومأنوس).

قال أبو عبد الرحمن: ويضاف إلى ذلك أن الأنعام مصدر متعة، لأنها من متاع الحياة الدنيا، وقد بين لنا ربنا بآية أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وبين لنا بآية أخرى أنه زين للناس حب الشهوات، فذكر من ذلك الأنعام. كما أن العرب فخورون بالإبل.

قال الشاعر:

لعمري لقوم قد نرى أمس فيهم
مرابط للأمهار والعكر الدثر
أحب إلينا من أناس بقنة
يروح على آثار شائهم النمر

○ ○ ○

قال أبو حيان: والعكرة من الابل ما بين الستين إلى السبعين، والجمع عكر. والدثر الكثير. اهـ.

وقال العباس بن مرداس:

لا يغرسون فسيل النخل وسطهم
ولا تخاور في مشتاهم البقر
إلا سوابح كالعقبان مقربة
في دارة حولها الأخطار والعكر

○ ○ ○

○ انظر ابن جزي ١٥٠/٢، والبحر المحيط ٤٧٥/٥، وأبو السعود ١٦٢/٣، وأضواء البيان ٢١٧/٣، وتفسير الثعالبي ٣٠٣/٢، والتفسير الحديث ٥٦/٦، والميزان ٢١١/٢.

٢٣ ـ فسر شيخنا الشنقيطي رحمة الله في تفسيره «أضواء البيان» الجمال في الآية الكريمة بالعظمة والرفعة وسعادة مقتنيها في الدنيا.

قال أبو عبد الرحمن: معنى الجمال مشتق من معنى العظمة كما مر، ولما استقل الجمال بمعناه اللغوي صارت العظمة جزءاً من معناه وليست جميع معناه.

وسياق الآية الكريمة وتخصيص وقتي النظر كل ذلك يدل على أن المعنى ليس مقتصراً على العظمة والرفعة فحسب.

٢٤ ـ قال أبو حيان: (يطلق الجمال ويراد به التجمل كأنه مصدر على إسقاط الزوائد).

قال أبو عبد الرحمن: ثمة فارق فالجمال هو المحسوس، والتجمل استعمال المحسوس للزينة. ولما رأى أي بعض المفسرين أن الآية نصت على أن في الأنعام جمالاً مقيداً بأنه لنا تابعوا أبا حيان في ملحظه، فالشوكاني مثلاً يقول في تفسيره ١٤٨/٣: الجمال ما يتجمل به ويتزين.

قال أبو عبد الرحمن: هذا تعريف له باستعماله لا بمضمونه.

والآية الكريمة فيها المعنيان، فالأنعام جميلة في ذاتها وفيها تجمل لنا، لأننا نتمتع بجمال رؤيتها ونتمتع باستمتاع الناظرين جمالها إذا كانت لنا. ولعلها تسنح إن شاء الله مناسبة أخرى لأستوفي الحديث عن مرادفات الجمال وأضداده والله المستعان.

• • •

◦ إن أفضل البقاع هي التي يقام فيها شرع الله .. وأفضل الناس من اتبع أمر الله.

«عبد العزيز آل سعود»